

د. سبعون سعيد

قسم علوم الاجتماعية

البليدة 2

الإنتاج المعرفي الكولونيالي : الإثنوغرافيا في الجزائر المستعمرة

ملخص:

لقد رافق الاستعمار الفرنسي للجزائر جهدا معرفيا بغية معرفة آليات سير المجتمع الجزائري بهدف الهيمنة السياسية و العسكرية و الفكرية على هذا المجتمع. في هذا الإطار «تخند» الإثنوغرافيا لعلم كولونيالي من أجل استيعاب جيد للجزائر المستعمرة، لتحقيق الخضوع التام للجزائريين ليكون خضوعا مزدوجا: عسكريا و معرفيا.

Résumé :

L'ethnographie fut mobilisée par le colonisateur afin de mettre en évidence les mécanismes et les logiques de fonctionnement de la société algérienne colonisée .cette discipline fut à l'avant-garde du savoir colonial sur la société algérienne quelles sont les caractéristiques essentielles de cette discipline, comment fut –elle exercée sur les populations algériennes du 19^{ème} siècle.

مقدمة

يمكن اعتبار الاحتلال الفرنسي للجزائر مغامرة، إذ يجهل الطرف الفرنسي الواقعي الجزائري ماديا ورمزيا. إن ضرورة بسط الهيمنة الاستعمارية كان يقتضي في منظور الإستراتيجية الاستعمارية اللجوء القوي للعنف العسكري، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كانت هذه الإستراتيجية تعتبر أن العنف العسكري رغم أهميته، لا يكفي لإمكانية السيطرة والتفتيت النهائي لكل أشكال المقاومة الشعبية الراضة للواقع الاستعماري الفرنسي ، إن اللجوء المكثف للعنف العسكري لم يسمح للاستعمار الفرنسي من اكتشاف "عورات" المجتمع الجزائري، وبالتالي لم يكن بإمكان الاستعمار الفرنسي صياغة إستراتيجية منتظمة تمكنه من تحطيم

العقبات التي ما فتىء الجزائريون ينصبونها في وجهه، حيث تميزت الأمور خاصة المراحل الأولى من الدخول الفرنسي، بغموض شديد واجهه الاستعمار. أمام هذا الواقع - العائق يدفع المستعمر إلى البحث عن البناء الاجتماعي الجزائري ماديا ورمزيا، وذلك عن طريق الغوص في أعماقه بتحليله وفهمه: « إلا أنه في بادئ الأمر يجيم شك، وذلك لكون العسكريين مثل السان- سيمونيين يحاولون إدراك من الداخل هذه الجزائر التي تم غزوها منذ فترة قصيرة، ولكن لم يتم فهمها ¹»، في منظور الإستراتيجية الكولونiale، الاعتماد على القوة لإخضاع الجزائريين رغم أهميته، هو غير كاف، حيث تظهر حدود المنطق العسكري خاصة أمام أهداف إدخال الجزائريين في المنطق الحضاري، وترسيخهم قيمه ومعايزه. من هذا المنطق يرى المشرفين على العملية الاستعمارية - خاصة مسؤولو الجيش - ضرورة اللجوء إلى إجراءات مكتملة للمستوى العسكري تسمح بنسف أركان المجتمع الجزائري، أي محاولة إيجاد السبل التي تمكن من تغيير جذري للمجتمع الجزائري من الداخل. محاولة التغيير الجذري هذه، أي الاستسلام للواقع - الجديد - الكولونيالي، تمر أساسا عن طريق معرفة الآخر - المستعمر - أي إخضاعه للتحليل والفهم: « الجيش الكولونيالي في حاجة إلى معرفة من يجارب، ومن أجل ذلك تنتج معرفة خاصة بالمناطق التي أبدت استبسالا في مواجهته ²».

1- الإثنوغرافيا العسكرية في خدمة المشروع الكولونيالي في الجزائر

إن ضرورة معرفة المستعمر تبرز أهميتها منذ اللحظات الأولى للعملية الاستعمارية « في نوفمبر 1833، يوجه المارشال "سولت"، وزير الحرب، رسالة إلى أكاديمية التسجيلات والآداب، في شخص أمينه الدائم، سيلفستر دو ساسي يقترح فيها على العلماء القيام بعمل يهم العلم والدولة معا، إذ يتعلق الأمر بوضع جغرافيا جديدة لموريتانيا تحت الحضارة القديمة، وتاريخ للاحتلال الروماني في هذه المنطقة، والمؤسسات التي وضعوها، والعلاقات التي أقامها هؤلاء الرومان والسكان الأصليين، حيث يعتقد المارشال أن هذه العملية بالإضافة إلى طابعها العلمي، يمكنها أن تقدم للغزو الفرنسي أشكالا عديدة من الخدمات، معطيات عملية آنية عن الظروف الطبيعية... معلومات نسميها اليوم بالإثنوغرافيا، التي تتعلق "بالقبائل" التي حافظت على عاداتها، وخصائص الشعوب التي كانت تقطن بلادها من حوالي ألفين سنة ³».

من هنا يتضح أن إرادة إنتاج معرفة حول المجتمع الجزائري، تبرز منذ اللحظات الأولى من الاستيلاء على أرض الجزائر، إذ تحدها إستراتيجية التوغل والتوسع الاستعماريين، إستراتيجية قوامها وأرضيتها الصلبة بالإضافة إلى اللجوء المكثف لعناصر القوى المادية - الجيش - تجد المكمل الرمزي لهذه الترسانة العسكرية والمتمثل في التحليل أو بالأحرى التفكيك "العلمي" للواقع الاجتماعي الجزائري، حتى يتسنى للمستعمر القضاء على كل أشكال المقاومة، وبالتالي بسط نفوذه وهيمنته، هذا كله يدفع إلى إنتاج معرفة يمكن تسميتها بمعرفة إثنوغرافية مرتبطة أساسا بالإستراتيجية العسكرية الكولونiale: « حيث تتطور إثنوغرافية عسكرية إنما إستراتيجية ⁴».

2- مميزات الإثنوغرافية العسكرية

يعتبر الاحتلال العسكري الفرنسي للجزائر اللبنة الأولى التي سيرتكز عليها صرح النسق الكولونيالي، إذ يلعب الجيش دورا هاما، ليس فقط على مستوى الميدان العسكري، بل يتكفل خلال الأربعين سنة الأولى التي أعقبت الاحتلال بمهمة تنصيب المؤسسات الكولونiale والسهر على نجاح المسعى الاستعماري والمتمثل أساسا في تحطيم وإحباط كل أشكال المقاومة الراضية للتواجد الفرنسي في الجزائر، من هذا المنطلق تظهر للجيش الفرنسي ضرورة معرفة حول مجتمع يجهل عنه كل شيء نظرا إلى اختلاف الأسس الحضارية التي تميز الجزائريين، عن الأسس الحضارية للمستعمر: « في المقابل أحست السلطة الاستعمارية بحاجة إلى دراسات اجتماعية قصد استدامة هيمنتها لتمايز الشعبي الجزائري عنها في تاريخه وثقافته ودينه، ولغته، مما فرض عليها معرفته... ⁵»، لما كان الجيش الفرنسي أول من حمل مخاض المسعى الاستعماري، أي أنه أول من واجه الواقع الجزائري المجهول بالنسبة إليه، فسيكون أول من يحاول فهم هذا الواقع، هذا ما يجعل الجيش يلجأ إلى عملية استكشافية للواقع الاجتماعي الجزائري

، إن العملية الاستكشافية للواقع الاجتماعي الجزائري من طرف الجيش الفرنسي قامت أساسا على التحقيق الميداني والملاحظات والوصف العينين: « لقد هيمنت صيغة التحقيق على كل الأبحاث الإثنوغرافية الفرنسية في الجزائر، في بداية انتصاب الحكم الاستعماري فيها »⁶.

إن اللجوء إلى هذا النوع من التقنية مرتبط أساسا بالأهداف التي كان يصبو إليها الجيش الفرنسي، حيث تسمح له بالاتصال المباشر بأولئك الذين هم موضوع زحفه الدموي، حيث يتسنى له فحصهم جيدا: « لقد ظهر التحقيق الإثنوغرافي في مظهر الفحص الممهّد للعمل العسكري، وقد مارس العسكريون ذلك "العمل العلمي" »⁷.

إن اللجوء المكثف لهذه التحقيقات الإثنوغرافية من طرف الجيش الفرنسي أملت الحاجة الملحة إلى المعلومات والبيانات عن المجتمع الجزائري حتى يتسنى ضبط الإستراتيجية الملائمة التي ستسمح بالسيطرة الكلية والنهائية، هذا ما يجعل المعرفة الإثنوغرافية لجزائر الاحتلال ترتبط « ... منذ نشأتها بالاستعمار لأنه عندما بدأت الدول الأوروبية في التوسع على حساب مجتمعات أخرى، كانت بحاجة إلى معلومات عن هذه المجتمعات المغايرة لها، حتى تتمكن من السيطرة أكثر وتضمن بذلك مصالحها »⁸.

فالاكتشاف "العلمي" للجزائر في بداية الاحتلال هو مدين بالدرجة الأولى للجيش الاحتلالي، إذ يحدد هذا الاستكشاف العلمي انطلاقا من المسعى الاحتلالي: « الاكتشاف العلمي للجزائر هو قبل كل شيء بدلالة الاحتلال، إذ ينطلق فعليا مع العسكريين وبفضلهم، وهو يتقدم بنفس الإيقاع الذي يسيرون عليه »⁹، ولما كان ذلك فإن أول العمليات الاستكشافية خلال العشرية الأولى للاحتلال خصصت للمناطق التي سقطت تحت الاحتلال العسكري في هذه الفترة، ما يغلب عن هذه الملاحظات الإثنوغرافية في هذه المرحلة هو طابعها الوصفي والمتعلق أساسا بالانطباعات الشخصية لبعض العسكريين المتعلقة بالطابع الجغرافي، وصف ملحمي بطولي للزحف الدموي للجيش الفرنسي، ووصف فلكلوري للجزائريين، كل هذا مغلف بأسلوب الطرافة¹⁰. بعد العشرية الأولى للاحتلال تحاول السلطات العسكرية التي كانت قائمة على أمور الجزائر، الاستعانة الفعلية بالمعلومات الميدانية عن الجزائريين تسمح لها بمواصلة زحفها: « بعد عشرية من النزول والاختيار المحدد لامتداد عسكري تقوم الحكومة ببحث واسع النطاق، حيث يتم جمع معطيات في حوالي أربعين مجلد، ما بين 1844 و1867، حيث يتحمل العسكريون نصيبهم، وعلى رأسهم كارات (Carette) وبيلسية (Pelissier) »¹¹.

إن العودة إلى الأهداف الأساسية التي حددت إلى هذه الهيئات - المكاتب العربية - التي هي بمثابة الوسيلة العملية لإنجاز الإستراتيجية الكولونيلية العسكرية وتحقيقها، ستمكننا من معرفة الأدوات - المعرفية - التي يتم اللجوء إليها قصد تحقيق الهيمنة والسيطرة الشاملتين على السكان الأصليين وأكثر من ذلك جعل هذه السيطرة الاستعمارية مقبولة نظرا إلى منطوق الحضارة التي كانت على أساسه تبرر تواجدها في الجزائر، أي « ... تجعل ظاهرة الاستعمار مقبولة من طرف من هم موضوع لها »¹².

إن إرادة جعل هذه الظاهرة الاستعمارية أمرا مقبولا من الجزائريين، يفرض على الإدارة الاستعمارية، بالإضافة إلى التدخل العسكري المكثف، نهج مسلك يرتكز أساسا على فهم آليات سير المجتمع المستعمر: « لذلك فإن تعاملها مع المجتمع الذي تستعمره أصبح يقتضي في هذه المرحلة تعاملًا جديدًا مع البنيات المجتمعية والاقتصادية لهذا المجتمع »¹³.

هذا التعامل الجديد المكمل للتدخل العسكري، يصبح يمثل الوظيفة الرئيسية التي كان على المكاتب العربية تأديتها والتي يمكن معرفتها في التحديد الذي وضعه الجنرال "دوما"، أحد الضباط الأوائل الذين أشرفوا على هذه الهيئات: « هذه الهيئة لها هدف متمثل في ضمان السلم الدائم من طرف القبائل بإرادة عادلة ومنتظمة، مثلما تهدف إلى تحضير الطريق لعمليتنا الاستعمارية، لتجارتنا، وذلك بالحفاظ على الأمن العمومي، وحماية كل المصالح الشرعية وزيادة سعادة السكان الأصليين، وعلى أعوان هذه الهيئات العمل أكثر فأكثر على تحضير الحل السلمي لكل الصعوبات، التي كثيرا ما فرضت اللجوء إلى القوة، وتخطي كل العقبات التي ينصبها مجتمع جد مختلف عن مجتمعنا بأخلاقه ودينه »¹⁴.

هذه الوظيفة الأساسية المحددة للمكاتب العربية، كيف يتم القيام بها على أكمل وجه؟

الإجابة عن هذا السؤال تكون: « عن طريق دراسة البلاد وملاحظة كل المصالح المحركة للسكان العرب، إذ يستطيعون* التوصل إلى تحديد الاستعمال الأكثر ضرورة وأكثر ملائمة للقوة العسكرية في حالة الثورة، كما يحضرون قمع كل انتفاضة بالوسائل الأكثر ردية والأقل تكلفة. وأخيرا لا بد عليهم أن يبذلوا جهدا من أجل جعل السكان الأصليين يقبلون بأقل نفور ممكن سيطرتنا وعناصر حكمتنا... »¹⁵.

3- أعوان المكاتب العربية.

إن الأهداف الأساسية المحددة لهذه المكاتب العربية والتي هي في الواقع أهداف السلطة الكولونيالية يتطلب تحقيقها معرفة الآخر، مراقبة حركاته وسكناته، ملاحظة ممارسته الاجتماعية: « لقد بدأت الهيمنة الاستعمارية تدرك أن حكم "الأهالي" لا يستقيم إلا بمعرفة معمقة للغاتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأخلاقهم»¹⁶، وذلك حتى يتسنى للعسكريين معرفة مكامن القوة ومكامن الضعف، والمركزات المادية والروحية لعدوهم الجزائري، أي «جس قدرات الوحدة، هو في البداية كشف عن المجموعات، تمفصلاتها، نسق تحالفاتها ونزاعاتها من هي هذه القبائل ما هي درجة استقبال الطوائف الدينية، التي كاد النظام العثماني أن يسقط تحت ضرباتها؟ من هم هؤلاء الجبايين القبائل الذين هم أقل استعدادا لقبول أي سلطة أجنبية؟»¹⁷.

4- مواضيع الإثنوغرافيا العسكرية

يرتبط الإنتاج المعرفي للعسكريين بالدرجة الأولى بأهداف عملية في ظل الإستراتيجية الكولونيالية العامة، وهو إنتاج معرفي محدد عمليا، لذا يمكن القول إن المعرفة الاجتماعية في شكلها الإثنوغرافي للعسكريين هي أساسا معرفة لإثنوغرافيا ميدانية محضنة هدفها «... اكتشاف العدو من أجل تحديد المواجهة، أي القيام بدراسة حوله قبل مواجهته، ثم بعدما يتم تحديد هذا العدو، الهجوم عليه وإسكاته، بعد كل هذا كله، يمكن إعطاء صورة عن هذا العدو»¹⁸.

كما يظهر الطابع العملي الآني المرتبط بالزحف العسكري خلال الأربعين سنة الأولى من الاحتلال، للإثنوغرافيا العسكرية، من خلال المواضيع التي كانت تجلب اهتمام العسكريين حيث فرضت نفسها على الساحة الإثنوغرافية العسكرية لكونها مرتبطة بالعقبات التي واجهت الزحف العسكري، هذه العوائق متمثلة أساسا في القبائل والطوائف الدينية، التي كانت حاملة لواء مقاومة التواجد الفرنسي الكولونيالي مهما كان شكل توغله، أي أن الاهتمام المعرفي للواقع الاجتماعي الجزائري من طرف العسكريين كان منصبا أساسا على العدو المباشر المعرقل لمشروعه: «... تواجه الإثنولوجيا العسكرية مشاكل ساخنة وآنية لكونها تعرقل تقدم الزحف الاستعماري، مثل القبائل، الطوائف الدينية...»¹⁹.

هذا التطرق المعرفي للقبائل والطوائف من طرف العسكريين كان يفرض طريقة تناول يجعل هذه القبائل والطوائف كلا متكاملتا غير مختزلا إلى بعض عناصر أو عنصر أساسي مكون لبنيتها الاجتماعية، أي أنها كانت تدرك على أنها: «... بنيات اجتماعية، مجموعات اجتماعية...»²⁰، معنى ذلك أن الإثنوغرافيا العسكرية تحيط بكل جوانب الحياة الاجتماعية للبنيات الاجتماعية موضوع اهتمامها، أي أن هذا الإنتاج الإثنوغرافي يريد تقديم صورة للمجتمع الذي يريد إخضاعه، بوصف كل جوانب الحياة

الاجتماعية مرفولوجيا وفيزيولوجيا عن طريق جمع ومراكمة كل المعلومات التي يستمدتها من تحقيقاته الميدانية. حتى نبين مدى ارتباط مواضيع الإثنوغرافيا العسكرية وتلبيتها للحاجات الاستراتيجية المحددة من طرف الإدارة الاستعمارية، نشير إلى العمل الميداني الذي قام الضابط "دونوفو" (De Neveu) من خلال مؤلفه Les Khouans : les ordres religieux chez les musulmans في 1945 والذي هو مرتبط بأهداف التوسع العسكري، وإخماد كل أشكال المقاومة وإسكات كل الجهات التي تحمل مدها. إذ أن هذا العمل يأتي «... بالتحديد، في الوقت الذي كانت تنتظم فيه مقاومة الزاوية، بصيغة أخرى إنه يصف

شيئا لم تستطع السلطة العسكرية إدراكه بدقة كبيرة، من دون ما تراه فعليا بسبب عدم معرفته، إنه العدو...»²¹.

يريد "دونوفو" من عمله هذا معرفة ميكانيزمات ومنطق سير الطوائف الدينية ومميزاتها وخصائصها العامة، وتبنيك علاقاتها: « معرفة التنظيم الديني، تدرجه، أعضائه، مصادره، شعائره، تفرعاته، تسمح بالتطرق إلى تنظيمات أخرى، واستخلاص من كل الملاحظات الغير كاملة صورة كافية الوضوح عموما»²².

حتى نوضح الاهتمام الكبير بالمواضيع التي كانت ترى فيها الإدارة الاستعمارية وسيلة إستراتيجية لتدعيم هيمنتها وترسيخها، نصيغ مع "أيفون توران" Yvonne Turin مقطع ممثل في التعليم التي بعث بها الحاكم العام "فيالا شارون" Viala Charon في 29 ماي 1849 إلى الجنرالات الثلاثة قادة الفرق العسكرية حيث يقول:

« عند تفحصنا باهتمام الأسباب التي أدت إلى الانتفاضات العديدة التي سنحاربها، نجد أن السبب الرئيسي متمثل في التعصب الديني الذي يسهل به تحريض شعب جاهل مثل الشعب العربي، هذا الأخير هو مستعد جيدا أيضا لاستقبال كل ما هو مخالف لسيطرتنا بفضل الحقد الذي يغذيه ضد المسيحيين . وهذا ما يجعل ضرورة البحث عن كيفية استغلال المحرضين لهذا الولع عند الجماهير وما هي الإجراءات التي لا بد أن تتخذ حتى يتم منع تأثيرها القتال، أو على الأقل التخفيض من أثرها. دراسة الأخلاق والتقاليد الدينية للعرب، وحدها فقط يمكن أن تؤدي إلى هذه النتيجة»²³.

كما يظهر اهتمام الإثنوغرافيا العسكرية بمواضيع لها صلة مباشرة بالظرف الاستعماري الآني المرتبط بعملية الزحف العسكري من خلال تركيزها على ما أسمته « بالخاصية البربرية»، إذ انطلاقا من خمسينيات القرن التاسع عشر نحضر إلى ما عرف «بالأسطورة القبائلية Le mythe kabyle» والسبب في هذا التوجه لمواضيع الإثنوغرافيا العسكرية نحو منطقة القبائل راجع إلى أسباب متعلقة بالوضع الكولونيالي الراهن والتطورات الجديدة التي أفرزتها خاصة المواجهات العسكرية مع الأهالي، إذ «بعد هزم الأمير عبد القادر، وإضعاف الزوايا، وانقسام أكبر الطوائف حول الموقف الذي يجب اتخاذه، ينتقل الموضوع الأساسي للاهتمام»²⁴. أي أن موضوع الاهتمام المعرفي للإثنوغرافيا العسكرية يصبح منصب على واقع جديد أفرزه منطلق زحفه العسكري، هذا الواقع مرتبط بالمقاومة التي أصبح يواجهها المد العسكري الكولونيالي، التي أبدتها منطقة القبائل، إذ «يصبح مركز النزاعات يقع في قلب منطقة القبائل بعد 1850 بشرق منطقة القبائل ليصبح فيما بعد بمنطقة القبائل الكبرى»²⁵.

يفرض انتقال مركز النزاعات العسكرية إلى منطقة القبائل ضرورة الحصول على معرفة حول هذا العدو المجهول، معرفة منطلق سيره الاجتماعي، بناءه الاجتماعي، العلاقات التي ترتبط بين عناصره، تفضل مختلف المستويات الاجتماعية، إذ: « من الحاجة إلى الحصول على لوحة أشمل من الأفكار الموجودة، يولد تحقيق ساهم فيه العديد من الأشخاص. بالإضافة إلى المعلومات التي جمعها كاريت... والتي يتم إثرائها بالتحليل التاريخي من طرف دوما وفابار... يضاف إلى كل هذا توضيحات أولئك الذين عاشوا عن قرب وشاركوا... في الحملات العسكرية البارون أو كابتان أتى من حملة 1857 بدراسات حول المجتمع القبائلي: في الواقع حول منطقة القبائل وصددها على الاستعمار الفرنسي بالجزائر. القائد دوفو Devaux مسؤول سابق لمكتب عربي، يقوم بدوره بنشر عرض عن المؤسسات، التقاليد والخصوصيات الأساسية للمجتمع القبائلي»²⁶.

إن الاهتمام بمنطقة القبائل كميدان وموضوع للإثنوغرافيا العسكرية بالإضافة إلى محاولتها معرفة الخصائص الاجتماعية لهذه المنطقة، يهدف أساسا إلى جعل المنطقة متميزة، وجعل تجمعها السكاني جد متميز خاصة على السكان الجزائريين ذوو الأصل العربي، إذ كانت تهدف الدراسات التي يقوم بها العسكريين إلى معارضة ومواجهة ما سموه بالخصوصية البربرية التي كانوا يرون فيها إمكانية وسهولة إدماجها خاصة ثقافيا* والمجتمع ذو الأصل العربي، إذ حاولت الإثنوغرافيا العسكرية رسم صورة نوعا ما إيجابية عن منطقة القبائل مقارنة بالصورة التي كونتها عن العربي المتخلف والمتوحش والذي يكن كرها وحقدا دفينين للمسيحيين، حيث

عظمت هذه الإثنوغرافيا، عدم مشاركة منطقة القبائل في ما سمي بالحرب المقدسة التي قام بها العرب، خاصة مع الأمير عبد القادر، ضد الجيش الكولونيالي عند بداية الاحتلال: « إذ اكتسب سكان منطقة القبائل حكما مسبقا إيجابيا بسبب عدم مشاركتهم في الجهاد المقدس الذي قام به العرب ».²⁷

فالاهتمام بمنطقة القبائل كان يرجى منه كسب تأييد سكان المنطقة وبالتالي القبول السلمي للعملية الاستعمارية التي حاولت الدراسات الإثنوغرافية بتركيزها على المميزات والخصائص البربرية، أن تبين الفائدة التاريخية التي يكتسبها البربر من التواجد الفرنسي الحامل لقيم حضارية ومعايير وتوجهات يكون للبربر فائدة كبيرة من اعتناقها، إتباعها وتبنيها، إذ تحاول هذه الدراسات تبيان الاستعداد الكبير لمنطقة القبائل بحكم خصائصها الاجتماعية والتاريخية لاستقبال عناصر الحضارة التي تحمل لواءها العملية الكولونيالية الفرنسية، حيث كان يعول كثيرا على العنصر البربري في ترسيخ السياسة الكولونيالية: « رغم جرأة هذا الرأي، فإننا نعتقد أن منطقة القبائل التي بقيت إلى يومنا هذا خارج اتصالنا المباشر، والتي بقيت تكافح كل سيطرة سابقة، لا بد أن تصبح من الآن إلى بضع سنين المساعد الأكثر ذكاء لعملياتنا والشريك الضروري لكل أعمالنا ».²⁸

أما أهم دراسات الإثنوغرافيا العسكرية التي جعلت من منطقة القبائل موضوع اهتمامها فيمكن التطرق إلى تلك التي قام بها "كاريت" بعنوان: 1847 « Etude sur la Kabylie proprement »

- الجنرال "دوما" والجنرال "فابار": « La grande Kabylie », 1857
- البارون "أو كابتان": « Le pays et la société Kabyle », 1857
- « Etude sur l'histoire et l'origine des tribus berbères de la haute Kabylie » 1859.
- « Etudes sur le passé et l'avenir des Kabyles : Les Kabyles et la colonisation de l'Algérie », 1863.

- C. « Les Kabyles du Djurdjura » ————— - دفو:
- « Etude nouvelles sur le pays vulgairement appelés la grande Kabyle », 1859.
- « Essai de grammaire kabyle », 1867 ————— - الجنرال "هاتو":
- « Poésie populaires de la Kabylie du Djurdjura », 1867.

بالإضافة إلى هذه الأعمال، نجد عددا كبيرا من المقالات التي ساهم بها العسكريون حول الواقع الاجتماعي الجزائري خاصة في المجلة الإفريقية: « La Revue Africaine » التي نشأت في 1856:

« لقد كان الضباط يمثلون مجموعة لا بأس بها ضمن الفريق الأول من المجتمع التاريخي * والمجلة * أنظر في هذا الشأن مؤلف فاني كولونا، المعلمون الجزائريون.

الإفريقية التي شجع نشأتها المارشال رندون Randon وقبل الإشراف عليها ».²⁹

لكن أهم وآخر محاولة للإثنوغرافيا العسكرية كانت مع العسكري الجنرال - هانوتو " ورجل القانون - وكيل جمهورية - لوتورنو LETOURNEUX - حيث قاما ببحث هام يتألف من ثلاثة أجزاء بعنوان: « La Kabylie et les coutumes .Kabyles » 1872-1873

هذا المؤلف يغلق المرحلة الأولى للاهتمام الإثنوغرافي الكولونيالي

إن نهاية مرحلة الاكتشاف "العلمي" للجزائر من طرف العسكريين ترتبط أساسا بالأحداث التي شهدتها الجزائر في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر والمتمثلة في انتفاضة المقراني وقمعها بقوة من طرف العسكريين، إذ أن قوة قمع هذه الانتفاضة كانت بمثابة تنويع للنظام الاستعماري بالجزائر وتكريسه.

فتكسير انتفاضة المقراني من طرف العسكريين يؤدي إلى انطلاق نهاية سيطرة الجيش على الشؤون الجزائرية، إذ اعتبر في الأوساط الكولونيالية المتطرفة أن مهمة العسكريين قد انتهت بإخضاع آخر معقل للمقاومة الجزائرية إلى ما يسمى بنشر السلام Pacification وأنه حان الوقت لتسليم مقاليد الأمور والشؤون الجزائرية إلى المدنيين وخير دليل على ضرورة اقتحام المدنيين للواقع الجزائري نجده في الميدان الإثنوغرافي العسكري ذاته مع اشتراك مدني وعسكري في عمل إثنوغرافي ميداني، كان من قبل من اختصاص العسكريين بالدرجة الأولى، : « إن اشتراك "هانوتو" ولوتورنو" يحتوي معنى رمزي مزدوج، من جهة فإنه يعلن بأن العسكريين قاموا بإنجاز مهمتهم، حيث بعدما تم غزو منطقة القبائل، فعن قريب لن يبقى لديهم أي مبرر في البحث والنقل - فلاخريين استغلال المواد التي تمت مراكمتها، فلاخريين احتلال الميدان».³⁰

خاتمة

يمكننا القول إن عمل "هانوتو" و"لوتورنو" يعلن نهاية مرحلة الاستكشاف الاستراتيجي المرتبط بالأهداف والضرورات المسلحة التي واجهت الزحف العسكري، أي مرحلة التحقيقات الميدانية لمعرفة الآخر المجهول، أي أنه يغلق فصل من فصول الاكتشاف "العلمي" والذي سمينا بالإثنوغرافيا العسكرية المهمة بوصف خصائص ومميزات العدو المجهول أساسا، دون محاولتها الارتفاع إلى إنتاج فعل علمي موضوعي، وهذا يمكن أن يفهم خاصة إذا عدنا إلى الأصول الاجتماعية لأغلبية الضباط العسكريين الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الفرنسية، بالإضافة إلى التأثير الكبير ببعض التصورات والأفكار التي كان يعج بها الحقل الفكري الفرنسي - سان سيمونية أساسا - والتي كان لها أثر في بلورة نسق تصوري معين حول المجتمع الجزائري: "المجتمع العربي أو البربري الذي يتم وصفه من طرف الضباط يحتوي على نصيبه من المغالطة بصفة غير واعية أو عمدية. وذلك لكون هؤلاء العسكريين"، ليس أكثر من غيرهم، متأثرين بالإيديولوجيات، "بالأفكار، بالموضات"، حيث كان القبطان "كاريت" سان سيموني في حين كان آخرون غير متأثرين بالتيار الرومانسي، إذ كانوا يرون من جديد القبائل (Tribus)، والفصائل (Clans) والمجموعات (Groupes) من خلال إقطاعية مثالية".³¹

هكذا ينتهي الفصل الأول من المعرفة الاجتماعية للجزائر الذي سمينا بالإثنوغرافيا العسكرية، بانتهاء مهمة الفاعلين لهذه المعرفة - العسكريين - ليفتح فصل آخر في تاريخ المعرفة الاجتماعية للجزائر، هو الآخر محدد بظروف وأسباب أفرزها الواقع الجديد من التاريخ الاستعماري.

المراجع:

- 1 - Jean-Claude Vatin, *L'Algérie politique : histoire et société*, A. Colin, Paris, 1974, p. 21.
- 2 - Jean Leca, Jean-Claud Vatin, *L'Algérie des anthropologues*, éd Maspero, Paris, 1976, p. 108.
- 3- Jacques Frémaux, « *Souvenir de Rome, et présence française au Maghreb : essai d'investigation* », in *Connaissance du Maghreb, science sociale et colonisation*, CRESEM, collection « *Recherches sur les sociétés méditerranéens*, CNRS, Paris, 1984, p. 32.
- 4 - J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 11.
- 5- عبد الرزاق جلاي: « من الإثنولوجيا إلى علم الاجتماع في الجزائر », رقم 1، معهد علم الاجتماع، جامعة قسنطينة، 1990، ص. 15.
- 6- زهير الداودي: « الامتحان الاستعماري الإثنولوجي - جزائر الإثنولوجيين », الفكر العربي، العدد 37-38، مايو 1985، ص. 459.
- 7- عبد الرزاق جلاي: مرجع سبق ذكره، ص. 15.
- 8- نفس المرجع، ص. 16.
- 9- J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 12.
- 10- Cf. Ibid, p. 12.
- 11- Ibid, p. 13.
- 12- محمد وقيدي، العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت، 1983، ص. 177.
- 13- نفس المرجع السابق، ص. 177.
- 14 - Xavier Yacono, *Histoire de la colonisation française*, P.U.F., Paris, collection Que sais-je ? N°428, 1969,p.15.
- 15 - Daumas cité par, X. Yacono, *ibid*, p. 15.
- 16 - محمد وقيدي، مرجع سبق ذكره، ص. 176-177.
- 17- J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 15-16.
- 18- Ibid, p. 18.
- 19- Fanny Colonna, *Savants paysans*, O.P.U. Alger, 1983, p. 244.
- 20- Ibid, p. 244.
- 21- Ibid, p. 244.
- 22- J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 16.
- 23- Yvonne Turin citant Viala Charon, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale*, Ecole, médecine, religion, 1830-1880, ENAL, Alger, 2e édition, 1983, p. 136.
- 24 J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 16.
- 25- Ibid, p. 16.
- 26- Ibid, p. 16-17.

- 27- Charls-Robert Agéron, « La France a-t-elle une politique Kabyle », in *Revue Historique*, tome cc xx III, 1, 1960, p. 314.
- 28 - Charls-Robert Agéron, citant Carette, in *ibid*, p. 314.
- 29 - George Marçais, « Célébration du centenaire de la fondation de la Revue Africaine », in *Revue Africaine*, 1956, p. 9.
- 30 - J. Leca, J. C. Vatin, *Op. Cit*, p. 17.
- 31- *Ibid*, p. 19.